كتب بالألمانية

الأزمة الصهيونية وحل الدولة الواحدة: حول مستقبل فلسطين ديمقراطية

Die Krise des Zionismus und die Ein-Staat-Lösung: Zur Zukunft eines demokratischen Palästinas

Petra Wild

Wien: Promedia, 2015. 256 Pages.

تنتمي الكاتبة المولودة في ولاية (هسن بيترا فيلد) إلى جيل جديد من الألمان لا يتوانى عن نقد إسرائيل والحركة الصهيونية بصراحة وجلاء، فخصوصية التاريخ الألماني وعلاقته باليهود والمحرقة اليهودية تجعل الألمان على المستوى السياسي والأكاديمي والإعلامي يتفادون التعرض للانتهاكات الإسرائيلية لحقوق الفلسطينيين، كما تجعلهم يتخوفون من نقد إسرائيل بل وحتى الحركة الصهيونية؛ لكيلا يتم اتهامهم "بمعاداة السامية" أو "معاداة اليهودية".

هذه المصطلحات ذات الحساسية العالية كانت ولازالت وسيلة – خصوصًا في ألمانيا– للسيطرة على أي شكل من أشكال النقد للسياسة الإسرائيلية أو الحركة الصهيونية.

الكاتبة درست اللغة العربية والعلوم الإسلامية في القدس ولايبزيغ ودمشق وبرلين، ولها كتابات عن القضية الفلسطينية والثورات العربية، وقد سبق هذا الكتاب دراسة أخرى بعنوان: "الفصل العنصري والتطهير العرقي في فلسطين"[1] حيث تطرقت الكاتبة إلى التطهير العرقي وما تسميه الفصل العنصري الاستعماري في فلسطين بجرأة غير مألوفة باللغة الألمانية. وقد تم اختيار هذا الكتاب لرسم صورة عن النقاشات التي تدور باللغة الألمانية حول نقد إسرائيل والحركة الصهيونية للقارئ العربي، حيث يفصح هذا الكتاب عن نمط جديد من التضامن المعرفي مع القضية الفلسطينية.

تنتسب هذه الدراسة إلى تيار حديث النشأة في ألمانيا عمومًا، وهي من الدراسات التي تُصعِّد النقد ضد الحركة الصهيونية من أجل تفكيكها، فالكاتبة تؤمن بأنه لا يمكن تحقيق السلام الحقيقي والعادل قبل القضاء على الصهيونية بشكل كامل، فبعد الاعتداءات الثلاثة الأخيرة على قطاع غزة ظهرت بعض الأصوات غير الاعتيادية في ألمانيا والتي تنتقد إسرائيل وسلوكها تجاه الشعب الفلسطيني، وكان الطرح منطلقًا من أن نقد سلوك إسرائيل أمرٌ طبيعي ولا يجب أن يعتبر ضمن دائرة ما يسمى "معاداة السامية" أو "كراهية اليهود".

يتألف الكتاب من مقدمة وخمسة عشر فصلًا، في المقدمة تحدثت الكاتبة عن تاريخ التطهير العرقي ضد الفلسطينيين عام 1948 م، وكيف أصبحت الحلول الدولية المطروحة منحصرة بحق عودة اللاجئين والقدس، أما خيار حل الدولتين المدعوم من أمريكا وأوروبا كان يجب أن يحقق في البداية جزءًا من حق تقرير المصير للفلسطينيين، إلا أن اتفاقية أوسلو أدت إلى اقتطاع مزيد من الحقوق الفلسطينية، وأصبحت الحلول المطروحة محصورة في إدارة شطر محدد من فلسطين مسيطر عليه عمليًا من إسرائيل، لذلك ومع مرور الوقت أصبحت فكرة إنشاء دولة فلسطينية ذات سيادة حقيقية على الأرض مجرد سراب.

[1] Petra Wild, 2013: Apartheid und ethnische Säuberung in Palästina: Der zionistische Siedlerkolonialismus in Wort und Tat. Promedia, Wien.

وتُبين الكاتبة أن هدف اتفاقية أوسلو لم يكن حل الصراع بين الجانبين، بل تصفية القضية الفلسطينية؛ لأنها لم تكن قائمة على أساس إرجاع الأراضي المحتلة عام 1967 للفلسطينيين لكي يُنشئوا دولتهم المستقلة عليها، بل إن إسرائيل جعلت من أوسلو هدفًا لكسب الوقت من أجل ضم المزيد من الأراضي والتوسع في الضفة الغربية، علاوة على وقاية نفسها من العقوبات الدولية وخصوصًا الاقتصادية، لذا كانت تلك الاتفاقية حافلة بالنجاحات السياسية والاقتصادية لإسرائيل في الوقت الذي لم تحقق فيه شيئًا للفلسطينيين.

تُبين بيترا فيلد أن دراسة الصهيونية تشير إلى أن التغلب عليها محتمل بل وممكن، فالصهيونية منذ اندلاع الانتفاضة الثانية تتوغل في الأزمات على عدة محاور أهمها:

أولًا: خسارة إسرائيل في عدة حروب مع حركات المقاومة.

ثانيًا: فقدان اليهود الغالبية السكانية في إطار فلسطين التاريخية.

ثالثًا: تطور حملات المقاطعة الدولية وسحب الاستثمارات، وحملات الدعوة لفرض عقوبات على إسرائيل.

رابعًا: نفور كثير من اليهود الأمريكان والأوربيين من الحركة الصهيونية، مما أفقدها الإجماع الذي كانت تتمتع به سابقًا.

وتوضح الكاتبة كيف كانت فكرة الصهيونية تقوم بالأساس على فكرة الاستيطان الكولونيالي وطرد الفلسطينيين من أراضيهم، حيث لم يكن ممكنًا تحقيق هدفها دون طرد أكثر من 750000 فلسطيني عام 1948م، ففكرة طرد الفلسطينيين هي مسالة متفق عليها بالإجماع ضمن إطارات الحركة الصهيونية المختلفة.

وتدلل إسرائيل – حسب المؤلفة – على أنها دولةٌ استيطانية بالدرجة الأولى من خلال الكثير من الخواص التي تتسم بها أهمها:

1) **العرقية**: أي اعتبار إسرائيل بأن هناك عرقًا له الحق في السيطرة والتحكم بالأعراق الأخرى.

2) **التمدد**: يعتبر التمدد أو التوسع المستمر جوهر الفكر الصهيوني. على سبيل المثال عام 1947م كان الفلسطينيون يمتلكون أكثر من 93٪ من مساحة فلسطين التاريخية، بيد أن الرقم تراجع إلى 8٪ عام 2013.

3) **العنصرية**: الكاتبة تقتبس هنا العديد من عبارات الحاخام اليهودي الكبير عوفادي يوسف الذي يصف العرب "بالأفاعي"، ويدعو لتدمير العرب وعدم إظهار أي رحمة في التعامل معهم.

حسب الكاتبة فإن الصهيونية تغرق في الأزمات المتلاحقة، فالحرب على لبنان زلزلت الحركة الصهيونية حيث انهارت أسطورة الجيش الذي لا يقهر، بالإضافة إلى انتهاء الحرب بفشل عسكري إسرائيلي، ومع أن إسرائيل قتلت ما يقرب من 1200 معظمهم من المدنيين، إضافة إلى تدمير هائل للبنية التحتية اللبنانية، إلا أن حزب اللّه كان يدير الحرب.

وفي المقابل فإن حزب اللّه قتل 121 جنديًا من أصل 159 قتيلًا إسرائيليًا، كما أن حزب اللّه استطاع على مدار 33 يومًا من إطلاق ما مجموعه 4000 صاروخ باستمرار، مما أدى الى فرار أكثر من نصف مليون يهودي إسرائيلي من الشمال، ناهيك عن الشلل الاقتصادي الذي ساد البلاد، وفي حين أن الجيش الإسرائيلي عام 1982 وصل إلى بيروت خلال ستة أيام فقط! إلا أنه لم يتمكن في حرب 2006 وعلى مدى أسابيع من الدخول إلى المدن الحدودية مثل بنت جبيل ومارون الراس.

تحت عنوان " الحرب على غزة: نصر تكتيكي، هزائم استراتيجية "(ص 73–90) تناقش فيلد كيف أن إسرائيل بعد حرب لبنان لم تعد قادرةً على إشعال حروب جديدة دون أن تتضرر، فالمقاومة تحسنت في مجالات التدريبات العسكرية والتسلح إضافة إلى استراتيجيات المواجهة، لذلك انتهت فكرة الردع التي كانت مبدأً جوهريًا لدى الجيش الإسرائيلي.

وتقول الكاتبة إن الحروب الثلاث على قطاع غزة أدت إلى زيادة المتظاهرين في القارات الخمس، تضامنًا مع الفلسطينيين وإدانةً للعدوان الإسرائيلي وقتل المدنيين، مما أدى بطبيعة الحال إلى زيادة حملات المقاطعة وسحب الاستثمارات، هذا الضرر الهائل، وتراجع صورة إسرائيل على المستوى الدولي، وضع إسرائيل أمام خيارين في التعامل مع حركات المقاومة في غزة: إما أن تهاجم هذه المنظمات مما يعني خسارة عسكرية إسرائيلية جديدة، وزيادة حملات المقاطعة وبالتالي انهيارات اقتصادية هائلة، أو ألَّا تهاجم هذه المنظمات مما يعني أنها ستزيد –أي المنظمات– من كفاءتها العسكرية وحفر الأنفاق، أي أن إسرائيل أصبحت اليوم أمام خيارين كلاهما مر، وكلاهما سوف يؤدي إلى خسارة إسرائيلية مستقبلية وتقدم لحركات المقاومة على المستوى العسكري وزيادة التضامن العالمي مع الفلسطينيين.

أما مسألة خسارة اليهود للأغلبية السكانية في فلسطين التاريخية، فتقول الكاتبة إن معظم الإسرائيليين يتمنون الحصول على جوازات السفر الأمريكية أو الأوروبية، وتشير إلى أن خمسين ألف إسرائيلي يمتلكون جواز سفر أمريكي، ومئة ألف يهودي إسرائيلي يمتلكون جواز سفر ألماني، حتى أن ألمانيا تقدم كل عام سبعة آلاف جواز سفر ألماني لإسرائيليين يهود.

تقتبس الكاتبة من إحدى الاستبيانات التي نشرت نتائجها جريدة هآرتس والتي أجريت عام 2013 أن 40٪ من يهود إسرائيل يفكرون بالهجرة، إضافة إلى صورة إسرائيل السلبية بسبب عدوانها وسياساتها الاستيطانية فإن هناك سببًا

آخر ذو أهمية كبيرة يعمل كمحفز لعدد من اليهود –خصوصًا العلمانيين والليبراليين– للهجرة من إسرائيل وهو ازدياد الحريديم، وهي مجموعة اليهود المتدينين التي تدعو إلى تطبيق التوراة في إسرائيل.

وتشير الكاتبة إلى أن الاستيطان في الضفة الغربية يخفف الكثافة السكانية لليهود داخل الخط الأخضر، مما يجعل عددًا من المناطق داخل إسرائيل ذات أغلبية فلسطينية، وتقارن الكاتبة إسرائيل مع جنوب إفريقيا، وكيف أن هناك تشابهًا في الهجرة السلبية في الحالتين، وأن هذه الهجرة السلبية مؤشر على الانهيار المستقبلي كما كان الحال في جنوب إفريقيا، وتدلل الكاتبة هنا على ما تقوله من خلال ظهور الكتابات الإسرائيلية التي تشير إلى مثل هذه المعلومات وخطورتها، مثل كتاب "أزمة الصهيونية" لبيتر بينارت والذي أثار ضجة في أمريكا حين صدوره، حيث أظهر الكاتب أزمة الصهيونية اليسارية، والصهيونية الليبرالية وعلاقتهم بإسرائيل.

تشير فيلد إلى أن فشل حل الدولتين، بجانب تآكل الصهيونية يطرح تساؤلات كثيرة حول مستقبل إسرائيل، فإما أن تستمر إسرائيل في سياسية الفصل العنصري أو تصبح دولةً ثنائية القومية، فهناك مجموعات فلسطينية وإسرائيلية مناهضة للصهيونية بدأت بُعيد اتفاقية أوسلو بمناقشة حل الدولة الواحدة، والذي يعبر عن جاهزية الفلسطينيين لتسوية تاريخية فيها الكثير من التنازلات، وقبول اليهود ليعيشوا معهم بسلام، مع أن الإسرائيليين احتلوا واستعمروا بلادهم.

هناك عدد من الحلول المطروحة من بينها حل الدولة الواحدة، والتي لا ترتكز على قومية أو انتماء عرقي أو ديني، بل تعتمد على الانتماء للدولة، أي أنَّ كلَّ من يعيش على أراضي فلسطين التاريخية له حقوق وواجبات مماثلة بغض النظر عن العرق والدين والقومية، في المقابل فإن آخرون يدعون إلى دولة ثنائية القومية، ترتكز على وجود شعبين لكل واحد منهما الحق في مناطق معينة ضمن نظام اتحاد كونفدرالي يجمعهم معًا، وتُبين الكاتبة أنه وبغض النظر عن شكل الدولة الجديدة، وعن التساؤلات حوله هل سيكون دولةً مركزية أم دولة ثنائية القومية، فإن النقطة المركزية هي تفكيك الصهيونية للوصول إلى التعايش والسلم الذي كان يتمتع به الجميع في فلسطين قبل نشوء الحركة الصهيونية.

بعد الحديث عن مناقشة الحلول المطروحة تعود الكاتبة تاريخيًا لجذور الصراع أي النكبة والتهجير وسياسية الاستيطان في المشروع الصهيوني، لتصرِّح بأن "اللاجئين الفلسطينيين ضحايا التطهير العرقي هم جوهر القضية الفلسطينية" (ص 164)، فهم يشكلون أكبر نسبة لاجئين في العالم، وحق العودة للفلسطينيين هو من أقدم قضايا اللاجئين التي لم تُحل حتى يومنا الحاضر، فإسرائيل أُسست ولازالت قائمة على التطهير العرقي للفلسطينيين، فالنكبة –الطرد الممنهج للفلسطينيين– حسب الكاتبة ليست مجرد خسارة الوطن، بل هي تعني لهم تدمير المجتمع الفلسطيني

ومحاولة إزالتهم كشعب من التاريخ، بالإضافة إلى مواصلة مصادرة أراضيهم، لذلك فهذه النكبة عبارة عن جرح لم يُشفَ بعد بالنسبة للفلسطينيين، فهو جرح الماضي والحاضر والمستقبل، وتشير الكاتبة إلى أن قضية اللاجئين وحق العودة هُمِّشَت وصارت قضية نسبية، حتى أن محمود عباس صرح بأنه لا يرى لنفسه الحق بالعودة إلى مدينة صفد، وتُحذر الكاتبة هنا من أن تنازل الفلسطينيين عن حق العودة يعني شرعنة التطهير العرقي الإسرائيلي بحقهم.

هدف الصهيونية حسب بيترا فيلد هو إحلال المستوطنين اليهود محل الفلسطينيين، لذلك فإن الاستيطان هو جزء رئيسي في السياسية والاقتصاد والعقيدة الإسرائيلية، وهي تنوه إلى أن الاستيطان والقومية والعنصرية والحرب هي أدوات لتوحيد المجتمع الإسرائيلي وجعل أعضائه يجتمعون خلف حكومتهم، فالاستمرار في الاستيطان يقلل أيضًا من التوترات داخل المجتمع الإسرائيلي. وتوضح المؤلفة أن 55٪ من اليهود الإسرائيليين يَعتبرون الضفة الغربية كمناطق محررة، وأن 32٪ منهم فقط يعتبرونها مناطق ترزح تحت الاحتلال، والرؤية بأن الضفة الغربية تعود لليهود هي قناعة متفشية بين اليهود الإسرائيليين بشكل عام.

بناءً عليه فان الكاتبة تَخلص إلى أن الشرط الأهم ليس فقط لقضية اللاجئين بشكل خاص، بل لأي مقترح لإيجاد السلام بشكل عام يكمن في حل عادل يعتمد في الأساس على تصفية الاستعمار، الذي هو مرادف في الحالة الفلسطينية لتفكيك الحركة الصهيونية. "تفكيك الصهيونية يتضمن، حل البنية التحتية للصهيونية في المؤسسات السياسية والعسكرية، والقضاء على قوانين الفكر الصهيوني العنصري" (ص 184). وتشير الكاتبة إلى أن مشروع تفكيك الصهيونية يُخيف اليهود الإسرائيليين، حيث أن مشروع الدولة الواحدة يرتكز على العدالة للفلسطينيين، بيد أن دولةً عادلةً يتمتع فيها الجميع بالمساواة تحقق مكاسب لليهود الإسرائيليين أيضًا، حيث أن هذه الدولة تضمن لليهود أن يكونوا مقبولين وأن يبقوا في فلسطين كمواطنين متكافئين، وأيضًا يستطيع اليهود الإسرائيليين أن يحرروا أنفسهم من وزر أن يكونوا مستعمِرين، وأخيرًا هذا يؤدي إلى تحقيق سلام عن طريق إنهاء الجرائم الكثيرة التي ارتكبتها ولا زالت ترتكبها الصهيونية. وفي حال تم التغلب على الصهيونية فهذا من شأنه أن يضع حدًا للملاحقات التاريخية لليهود ليس فقط في إسرائيل بل في العالم كله.

تنقد الكاتبة قادة الصهيونية بسبب استخدامها "فزاعة معاداة السامية" (ص201) بشكل دؤوب منذ تأسيس إسرائيل لأجل جعل اليهود أوفياء للحركة الصهيونية، وتستعرض الكاتبة كيف أن الأطفال اليهود يبدؤون الدراسة عن المحرقة اليهودية في روضة الأطفال ابتداءً من عمر ثلاث سنوات، فالتاريخ اليهودي يُعرَضُ للأطفال على أنه تاريخُ ملاحقة وقتل لليهود، وبالتالي فإن أي شخص ينتقد الصهيونية يسمى "معادي للسامية"، وكل قيادي معادٍ للصهيونية يسمونه "هتلر الجديد"، فهذا دافيد بن غوريون وصف العرب بأنهم: "تلاميذ بل بالأحرى أساتذة هتلر"(ص201)، هذه الدعاية تجعل اليهود الإسرائيليين يؤمنون بأن كل نقد للصهيونية وسياستها الاستعمارية هو نقد ضد اليهود، لذلك

تَكرَّس عند الكثير من اليهود الشعور "أن كل العالم يكرهنا لمجرد أننا يهود" (ص 201). هذا الشعور أدى إلى ظهور ما تطلق عليه الكاتبة "العقلية المحاصرة"، في نفس الوقت فإن تفسير انتقاد إسرائيل على أنه معاداة للسامية يستخدم كذريعة للتهرب من مواجهه الحقائق في المناظرات.

يؤخذ على الكاتبة عدم التقيد بالتسلسل التاريخي في طرح موضوع الأزمة الصهيونية، فهي تبدأ مثلًا بمناقشة حل الدولة الواحدة وحل الدولتين، ثم تعود للحديث عن مشكلة التطهير العرقي والتهجير ومشكلة اللاجئين، التي تسبق تاريخيًا حل الدولتين، يؤخذ أيضًا على الكتابة عدم التمييز بين أطياف الحركة الصهيونية، فهناك اختلافات في المسارات والمواقف في كيفية التعاطي مع الفلسطينيين والحلول المطروحة، إلّا ان الكتاب لم يتعمق في توضيح تلك الفروقات والاختلافات.

الحلول التي تطرحها الكاتبة تبدو منطقيةً ومعقولةً مثل تفكيك الحركة الصهيونية والضغط الدولي على إسرائيل من خلال المقاطعة وسحب الاستثمارات، إلّا أن الكثير من الأفكار التي تتعلق بإيجاد حلول من خلال دولة ثنائية القومية أو دولة مركزية تبدو غير قابلة للتطبيق لكون غالبية الإسرائيليين ببساطة مناهضين للانسحاب من الأراضي الفلسطينية التي احتلت عام 1967.

بالرغم من صدور عدد من الكتب التي تنتقد الصهيونية وإسرائيل باللغة الألمانية مثل: كُتب موشيه سكرمان وإبرهام ميلزر، فإن هذا الكتاب يُعبر مرة أخرى عن ارتفاع وتيرة التضامن مع القضية الفلسطينية، والاكتراث لإيجاد حلول عادلة للفلسطينيين، أيضًا فإن هذا الكتاب يعبر عن شجاعة غير مألوفة في التعاطي مع موضوع فائق الحساسية في ألمانيا، لذلك فإن هذا الكتاب يشكل مدخلًا سوف يحفز الكثير من الألمان في المستقبل لكسر حاجز التوجس من نقد إسرائيل والحركة الصهيونية.

الباحث

فادي الزعتري